ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449 مجلة الآداب و الحضارة الإسلامية
السنة :2021 عدد 27 مجلد : 13

معايير أدبية اللغة و الأسلوب عند محمد البشير الإبراهيمي

Literary standards of language and style according to Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

البشير خذير *
1 جامعة عمار ثليجي (الجزائر)، Ba.khadir@lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: 2021/08/04. تاريخ القبول: 2021/10/20 تاريخ النشر: 2021 /12/30

ملخص:

يعد الأدب الإبراهيمي مرتكزا ثقافيا جزائريا كبيرا؛ لأنه يمثل أدب الممانعة و المقاومة الثقافية من جهة،و يمثل من جهة أخرى ذروة ما كتب لبراعه صاحبة اللغوية و تمكنه من ناصية اللغة مع فخامة التعبير و رصانة العبارة ،و الإغراق في الإشارات التاريخية و الثقافية،وقد أردت أن اقف في هذا العمل على مدي توافر شعرية الخطاب و أدبية اللغة في لغة و أسلوب الإبراهيمي.

كلمات مفتاحية: أدبية الخطاب الأدبي. اللغة والأسلوب في آثار محمد البشير الإبراهيمي.

Abstract:

Brahimi literature is a major Algerian cultural anchor; Because it represents the literature of opposition and cultural resistance on the one hand, and on the other hand, it represents the pinnacle of what was written for its linguistic ingenuity and its ability to master the language with the grandeur of expression and sobriety of expression, and the immersion in historical and cultural references, and I wanted to stand in this work on the extent Availability of the poetic discourse and literary language in the language and style of the Ibrahimi.

Keywords: Literary literary discourse. Language and style in the works of Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi**.**

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إنّ الأدب الإبراهيميَ منبعٌ ثرٌّ لا ينضبُ، ارتبط بالجزائر العميقة و رافقها في أمالها و ألامها والحديث عن أدب الإبراهيمي هو حديث عن أدب المقاومة الثقافية.

لقد وجدت الرغبة تحدوني إلى دراسة أدبية الأدب الإبراهيمي في خصيصة اللغة والأسلوب فمما لا شك فيه في أنّ الأدب فن لغوي بامتياز يتوسل باللغة، والأدبية و هي تحدد الحدث اللغوي إلى ظاهرة فنية، تقرُّ بأنّ النص الأدبي لا يستوعب إلّا من خلال تركيبه اللغوي.

و الواقع أنّ الأدبية لا تظهر إلّا من خلال الاستخدام الفني البارع للغة، فهي—كما يُقال- لغة داخل لغة، ولا تخرج عن اللغة، و إلى هذا أشار جونثان كولر في كتابه مدخل إلى النظرية الأدبية بقوله:"الأدبية تقع معظم الأحوال داخل نظام اللغة التي تجعل الأدب متميزاً عن اللغة المستخدمة لأغراض أخرى."

فما هي تجليات الأدبية في اللغة الإبراهيمية؟ وقد تتبعت المنهج الوصفي التحليلي في كشف مكامن الأدبية في الخطاب الإبراهيمي.

إنّ براعة الإمام الأدبية اللغوية تقوم على عناصر أهمها:

2. اختيار الألفاظ (المفردة)

تعتبر اللفظة المفردة شخصية مستقلة متميزة لها قيمة بذاتها قبل دخولها التركيب؛فلها صفة الحسن أو القبح قبل أن يستعملها الأديب في التركيب اللغوي الدال على فكرة أو عاطفة أو إحساس .

ينبع عنصر التأثير الأدبي عند الإمام الإبراهيمي من الاستعمالات الأدبية للكلمات فالإمام بارع في اختيار الألفاظ ذات وقع شاعري التي تؤثر في المتلقي بتعدد مدلولاتها، وتأسر فؤاده بإيحائها، الأمر الذي حقق للإمام مرتبة الشفوف عن الأقران حتى غدا رائد مدرسة في الكتابة الأدبية، وظني أنّ الإمام لم يجعل اللغة وسيلة لأداء الأغراض بل جعلها غاية في ذاتها . أستوعب جميع مظانها، و نهل من معاجمها، واندفع إلى مسالكها، و انتهى إلى ضروراتها.

لذلك تخير من الألفاظ أكثرها وضوحاً، و أجزلها معنى، و أدقها كتابةً، و أقواها حجةً، وأنسقها ترتيباً "فاللفظ –كما يرى الجاحظ– متى كان كريماً في نفسه متخيرا في جنسه،سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حُبب إلى النفوس و أتصل بالأذهان، و ألتحم بالعقول، و هشت إليه الأسماع و ارتاحت إليه القلوب، و خفّ على ألسن الرواة و شاع في الآفاق ذكره "[1].

من أمثلة ذلك ما جاء في رسالته إلى الطلبة الجزائريين الزيتونيين بمناسبة الذكرى السابعة لوفاة الإمام ابن باديس (أفريل 1947م) يقول: "حيّكم الله وبيّاكم، وأبقاكم عوامل رفع لهذا الوطن وأحياكم، وأطال أعماركم للعربية تعلون صروحها وتنقشون في الأنفس لا في الأوراق شروحها، ولهذه الأمة تضمدون جروحها وتداوون قروحها، وللملة الحنفية تحمون حماها وترمون من رماها."[2]

فقد جُمع في هذه الفقرة من اللفظ أعذبه، و أحسنه وقعاً على النفس، و أكثره تأثيرًا في الوجدان، فكانت بحق مقطوعة أدبية جيدة.

و نمثل كذلك على ما قلنا بقوله:"فتعالوا بنا في هذا المشهد، وأخبار النصر متوالية، وأصوات البشائر بقرب ساعة الفتح العزيز متعالية، نرسل إلى أولئك المجاهدين الأبطال تحيات زكية، تخالطها نفحات مسكيّة، تحملها عنّا أمواج الأثير لا نسمات الصبا، ودعوات للولي الحميد بالنصر والتأييد، تطير بها أجنحة الإنابة، إلى مشارف الإجابة، نزجيها إمدادًا كالغيث في وقت الحاجة إليه، ونعدها إن لم تسعد الحال إسعادًا بالقلوب، إلى أولئك الأبطال الذين كتبوا بدمائهم الصفحات الأخيرة من تاريخ ذلك الشمال الملتحم الأجزاء، كما كتب أسلافهم الأولون أمثال عقبة والمهاجر وطارق الصفحات الأولى منه، ولا عجب فهؤلاء الأبطال

– [1] – أبو عثمان الجاحظ ، **البيان و التبين**،

[1]ج02 ص:8/7.

*– وزير وسياسي ومفكر عراقي مختص بالتربية من مواليد الكاظمية ببغداد عام 1903، شغل عدة مناصب كالتدريس و الإدارة والوزارة...توفي بتونس عام1997م.له عدة مؤلفات:دعوة العراق للإتحاد العربي.دعوة إلى الإسلام .

[2] – الإبراهيمي، الآثار، ج02، ص:152.

متصلون بتلك الأنساب، متحدرون من تلك الأصلاب، ففيهم من الخصائص النفسية الموروثة ما ترون من آثار، وتسمعون من أخبار، ولا ترتابوا في أن هذا من ذاك. "[1]

و قوله كذلك: ولقد علّمتنا لغة العرب فنًّا في مصاص الأشياء فقهنا منه أنّ من النساء عقائل، وأنّ في الأموال كرائم، وأنّ في الجواهر فرائد، وأنّ في النجوم درراري، وأنّ في الشعر عيونًا، وأنّ في الذخائر أعلاقًا إلى آخر ما يجري على هذا النسق."[2]

فأنت تلاحظ أنّ هذه المقتطفات من الخطبة حفلت بألوان من الألفاظ المتخيَّرة المنتقاة التي تلائمت، وصحت وجاءت قوية واضحة عليها مسحة من الجمال و السلاسة، ابتعدت عن الحوشي والغرابة فساهمت في تعميق المعنى وشرفه وأضفت عليه جلالاً و جمالاً . و هذا ما يجعل الذهن يسارع إلى الحكم عليها بالأدبية .

يقول أبو هلال العسكري: "إذا جمع الكلام العذوبة والجزالة، والسهولة والرصانة،مع السلاسة والنَّصاعة، واشتمل على الرَّونق والطلاوة، وسَلم مِن حَيف التأليف، وبَعُد عن سماجة التركيب قَبِلَه الفهم الثاقب ولم يردَّه، والفهم يأنس مِن الكلام بالمعروف، ويَسكُن إلى المألوف، ويُصغي إلى الصواب، ويَهرُب مِن المحال، ويَنقبِض عن الوحَم، ويتأخَّر عن الجافي الغليظ، وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزَّة غليظة، وجاسية غريبة، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسًا عذبًا وسهلاً حُلوًا، ولم يَعلموا أن السهل أمنع جانبًا وأعز مطلبًا."[3]

1.2 الترادف:

تعدّ ظاهرة الترادف في اللغة العربية ميزة تكاد تتفرد بها اللغة العربية ، ساهمت في إغناء المعجم اللغوي

و أعطت مندوحة في التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من لفظ دون حدوث لبس في الفهم، وقد كان لعلماء

[1] – المصدر نفسه، ج05، ص:197.

[2] – المصدر نفسه، ج01، ص:361.

[3] – أبو هلال العسكري، **الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي وأبي الفضل إبراهيم،المكتبة العنصرية، بيروت، لبنان(د ط)،1419هـ،ج01، ص:57.

اللغة جهوداً كبرى في بيان مفهوم الترادف أسباب حدوثه .و كثر عند الإمام الترادف عند الإبراهيمي كجمالية من جماليات اللغة الإبرداعية.و نمثل على ذلك بـ:

"و أملتها أفكار خالية من الحكمة و السّداد...."[1]

"يكون واضح الدّلالة، بيّن المقاصد.....لا إبهام فيه ولا غموض."[2]

و " ... حافظتْ عليه في جميع عهودها لمعانٍ معلومة، و مقاصدَ مفهومة، وكلّ ما كتب في عهد الاحتلال من عهود، وكل ما بذل بعد ذلك من وعود، فهو شيء يكذّبه الواقع. "[3]

و " وكيف لا أفخر بصداقة أعلامها في الوقت الحاضر، وما منهم إلّا مَن نظم فيها ونثر، وما كبا في ميادينها ولا عثر، وأَحْيَا مِن معالمها ما اندثر، وانبط العين بعد أن خص الأثر."[4]

و "...وما ذلك النوع ...إلاّ هزء مكشوف، وسخرية مفضوحة..."[5]

و"...وأنّها لا تعال ج بمثل هذه التضرّعات و التّوسّلات...."."[6]

و قد كان للترادف دور في بناء التعبير عند محمد البشير الإبراهيمي، ففيه تكثر في وسائل الإخبار، كما استدعته الضرورة الكتابية،كظاهرة السجع مثل: "للظلم وأشياعه، والطغيان وأتباعه"، فلو لم يكن في غناء المعجم اللغوي عند الإمام مندوحة لما استقام السجع في هذه العبارة.إذ لو جاءت العبارة على النحو التالي:

" للظلم وأشياعه، والطغيان وأعوانه"، لما كان فيها السجع.كما أنه في بعض المترادفات بلاغة أكبر لذلك راينا الإمام يتعمدها، لأنه كما أشارنا يحب علو الاختيار.

1 – الإبراهيمى، الآثار، ج03، ص:49.
2 – المصدر نفسه، ص:49.
3 - المصدر نفسه، ص:51.
4 - المصدر نفسه، ج04، ص:225.
5 - المصدر نفسه، ج03، ص:74.
6 - المصدر نفسه، ص:77.

و كذلك للترادف دور في رفع اللبس و إجلاء المعنى، إذ يقوم بدور تفسيري، مثل: "... فلما أقام الإسلامُ بهذا الشمال الأفريقي إقامةَ الأبد وضربَ بجرانه فيه أقامتْ معه العربية لا **تريم** ولا تبرَح، ما دام الإسلام مقيمًا لا يتزحزح..."[1]

فقد قامت الكلمة الثانية ببيان تفسير ما قبلها.

2.2 الاشتقاق:

يُساهم الاشتقاق في نماء اللغة؛ بالتكثر في الألفاظ،كما يُساعد في مواكبة اللغات لمختلف التطورات الحاصلة في العلوم، و التغييرات الناجمة عن البيئات؛ فيحفظ لها حياتها و يكفل استمراريتها.

و قد فاضت الاشتقاقات في كتابات الإمام، و ألقت بظلالها الجمالية عنده، و من نماذج الاشتقاق ما جاء في مقال له بعنوان الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر:

"أتمثّله متساميًا إلى معالي الحياة، عربيدَ الشباب في طلبها، طاغيًا عن القيود العائقة دونها، جامحًا عن الأعنَّة الكابحة في ميدانها، متَّقد العزمات، تكاد تحتدم جوانبه من ذكاء القلب، وشهامة الفؤاد، ونشاط الجوارح. أتمثَّله مقدامًا على العظائم في غير تهوّر، محجامًا عن الصغائر في غير جبن، مقدّرًا موقع الرجل قبل الخطو، جاعلًا أو الفكر آخر العمل.

أتمثّله مقبلًا على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع، إقبال النحل على الأزهار والثمار لتصنع الشهد والشمع، مقبلًا على الارتزاق، إقبال النمل تجدُّ لتجِدَ، وتدَّخر لتفتخر، ولا تبالي ما دامت دائبة، أن ترجع مرة منجحة ومرة خائبة.[2] و " أتمثّله محمديّ الشمائل، غير صخّاب ولا عيّاب، ولا مغتاب ولا سبّاب، عفًّا عن محارم الخلق ومحارم الخالق، مقصور اللسان إلا عن دعوة إلى الحق، أو صرخة في وجه الباطل، متجاوزًا عما يكره من إخوانه، لا تنطوي أحناؤه على بغض ولا ضغينة."[3]

فاضت هذه المقال بالمشتقات التي توزعت على الأوزان االتالية:

---

[1] – المصدر السابق، ص:206.

[2] – المصدر نفسه، ج**03**، ص:**509**.

[3] - المصدر نفسه، ص:**511**.

- متفاعل: متسامي.
- فاعلا: طاغياً جامحاً.
- مفعالاً: مقداماً.
- فعّال: صخّاب، عيّاب، مغّتاب..

و أسعف الاشتقاق الإمام في التعبير عن المعاني، و مدّ أمامه مجال الدلالة، فكيف حروف الكلمات حسب المعاني المراد التعبير عنها.

3.2 اسم التفضيل:

جاء لصيغة اسم التفضيل تردد كبير في أعمال الإمام، و أورده في مقام المفاضلة بين الأوضاع و الأشباه، ولعقد مقارنات لطيفة بين المتقابلات مثل ما هو موجود في:

"إن جريمة الجهل، ومحو لوصمة الأميّة، وتنصّل من ضَعة الخمول، وأن الأب العالم الذي يرضى بذلك ويهون عليه، إنما يفعله معتقدًا أن ولده سيكون أعلمَ منه، وأوسع اطلاعًا، وأنفذ بصيرة على نسبة من زمنه، وتطورات زمنه؛ ولا يعتقد غير ذلك منهم إلا مغرور بنفسه، الجاهلُ أحسن إدراكًا للزمن منه؛ وأن الوطن حين يرضى بخلوّه من أبنائه أنهم ما أخلوْه إلا ليعمروه، وما قطعوه إلا ليصلوه، وما فارقوه شبانًا عزلًا إلا ليعودوا إليه كهولًا مسلّحين بقوة التفكير، تظاهرها قوة العلم، تظاهرها قوة العمل.."[1]

و قوله:" سفير دولة إسلامية يفارق مركزه الرسمي، ويترك أشغاله الرسمية، ويخالف سنّة زملائه، ويشدّ الرحال إلى ثالث المساجد الثلاثة، ليقيم فيه سنّة إسلامية، هي أفضل السنن في تزكية النفس، وتطهيرها من المكدّرات، وفي تصفية الأرواح، وتلطيف كثافتها، شرعت في شهر رمضان لتكون نفس المؤمن بمقربة من الله في الدائبين..."[2]

4.2 الغريب و الدخيل:

رغم أنّ عصر الإمام عصر انكماش علمي ألقى بضلاله على جميع شُعب المعرفة، خاصة في القطر الجزائري الذي أصبحت العربية تشهد فيه تغريباً و محوا لمعالمها، إلاّ أنّ جمعية العلماء برجالاتها وقفت أمام هذا التغريب بالتربية و التعليم، و بث الوعي داخل القطر الجزائري..، ولم يكن الإمام بمعزل عن هذه الجهود

1 – المصدر السابق، ص:**202**.

2 - المصدر نفسه، ص:**489**.

الجهادية، بل كان له قصب السبق، فاستعابه للقرآن و الحديث و عيون الشعر العربي، و اطلاعه على الموروث الثقافي العام جعل من كتاباته نموذج للبيان العربي حتى أنّه يذكر بفحول البلاغة و يباريهم و لا يقع دونهم. و كما استعمل الإمام اللفظ المأنوس كما كان يُطلق هو عليه هذه الصفة، استعمل بالمقابل الغريب و الدخيل مثل قوله:" إن العروبة جذم بشري من أرسخها عرقا، وأطيبها عذقا، عرفت التاريخ باديا وحاضرا، وعرف فيه الحكمة والنبوة، وعرفته الفطرة لأول عهودها فتبنته صغيرا وحالفته كبيرا ..."[1].

و قوله: "...لو تفرّقت عليهم ووجدت فيهم لنفعوا أنفسهم، وشرّفوا أوطانهم، فما شئت من حنكة وتدريب، وما شئت من خطًى واسعة في الاختيار والتجريب، وما شئت من نهزة و تشمير. لا تفوت معهما فرصة، وما شئت من ضبط للوقت لا تتجرعّ معه من التفريط غصّة، إلا وجدت كل ذلك فيه؛ شهد الزائرون لمزارعه الواسعة بالمغرب، التي يديرها بنفسه..."[2].

و قوله: "... ولكن هذه الحكومة لم تشأ أن تلغي حرفًا واحدًا من تلك القرارات والقوانين. فلما خابت المفاوضات الأخيرة جاءني الشيخ (باي) يومًا إلى منزلي وبيده نسخة مشروع وضعه دهاقين الإدارة بالحكومة الجزائرية لتستصدر الحكومة على نمطه من مجلس الأمّة الفرنسي "قانونًا" أو من الوزارة ديكري* "[4].

و قوله"...وحذّرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة، والوطنيات المحدودة، التي هي منبع شقائهم ومبعث بلائهم، وبيَّنا لهم أنها دسيسة استعمارية، زيّنها لهم سماسرة الغرب، وعلماؤه وأدلّاؤه، وغايتهم منها التفريق، ثم التمزيق، ثم القضم، ثم الهضم..."[5]

ولم يتقصد الإمام الجنوح إلى الإغراب بل- على غلبة الظن- وقع له هذا تحت طائل الضرورة التعبيرية من جهة، و تعليمية من جهة ثانية فقد كان يلفت إلى تعلم العربية و استعاب غريبها الذي سيصبح بعد الدربة والألفة مأنوساً.

3. نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها:

[1] – المصدر السابق، ج**01**، ص:**21**.

[2] – المصدر نفسه، ج**03**، ص:**569**.

*3 – دِيكري": كلمة فرنسية معناها مَرْسُوم.

[4] – المصدر نفسه، ص:**235**.

[5] – المصدر نفسه، ص**422**.

و يأتي بعد اختيار الألفاظ وضعها في موضعها التأليف الذي يعد المحور الجوهري في الأدبية، ومظهرها الذي تتجلى فيه، إن لم تكن هي الأدبية نفسها" فأدبية النص تتحقق بنظمه."[1]؛ أي بتأليفه.

فالتركيب عامة هو أساس الكلام، و هو ميدان التفاضل، ومعيار تفوق أديب على آخر، فحتى وإن كانت الأدبية تتطلب حسن الألفاظ فإن عزل الألفاظ عن سياقها الجملي ينزل بها إلى مستوى الكلام العادي.

يقول عبد القاهر الجرجاني :" ومما يشهد لذلك – أي صحة التركيب- أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر. "[2]

و للإبراهيمي مقدرة عجيبة على استدعاء الكلمات من مظانها ومن مواقعها المعجمية، وتوظيفها في سياقاته الأدبية المتنوعة لذلك جاءت ألفاظه و عباراته لها خصوصية فنية، وطابع خاص، كقوله:"للظلم وأشياعه، والطغيان وأتباعه"، فأنت ترى مشاكلة أكيدة بين هذه الألفاظ تمثلت في:

- الترادف الحاصل بين: الظلم و الطغيان، الأشياع و الأتباع.
- الجناس الحاصل بين: فواصل الجمل أشياعه و أتباعه.

ثم بعد هذا كلّه وضعها في نسق يوحي لأول وهلة بالتقابل بين الجملتين.

4 .المناسبة بين اللغة و الأغراض المتناولة:

تنبع الأدبية كذلك عند محمد البشير الإبراهيمي من أخضاع اللغة إلى الغرض، بمعني التناسب بين المبني والمعنى؛ فيستعمل الألفاظ الرقيقة للمعاني الدقيقة كمعاني الدعاء و العتاب الرقيق الذي هو فوق اللوم الرقيق ودون التقريع الغليظ... ، و الألفاظ القوية للتهديد و الوعيد، و الإنذار..و من أمثلة ذلك عنده:

" اللَّهُمَّ يَا نَاصِرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ انْصُرْنَا، وَخُذْ بِنَوَاصِينَا إِلَى الْحَقِّ، وَاجْعَل لَّنَا فِي كُلِّ غَاشِيَةٍ مِنَ الْفِتْنَةِ رِدْءًا مَنَ السَّكِينَةِ، وَفِي كُلِّ دَاهِمَةٍ مِنَ الْبَلَاءِ دِرْعًا مِنَ الصَّبْرِ، وَفِي كُلِّ دَاجِيَّةٍ مِنَ الشَّكِّ عِلْمًا مِنَ الْيَقِينِ، وَفِي كُلِّ نَازِلَةٍ مِنَ الْفَزَعِ وَاقِيَةً مِنَ الثَّبَاتِ، وَفِي كُلِّ نَاجِمَةٍ مِنَ الضَّلَالِ نُورًا مِنَ الْهِدَايَةِ، وَمَعَ كُلِّ طَائِفٍ مِنَ الْهَوَى رَادِعًا مِنَ الْعَقْلِ. وَفِي كُلِّ عَارِضٍ مِنَ الشُّبْهَةِ لَائِحًا مِنَ الْبُرْهَانِ، وَفِي كُلِّ مُلِمَّةٍ مِنَ الْعَجْزِ بَاعِثًا مِنَ النَّشَاطِ، وَفِي كُلِّ مَجْهَلَةٍ مِنَ الْبَاطِلِ مَعَالِمَ مِنَ الْحَقِّ الْيَقِينِ، وَمَعَ كُلِّ فِرْعَوْنَ مِنَ الطُّغَاةِ الْمُسْتَبِدِّينَ مُوسَى مِنَ الْحُمَاةِ الْمُقَاوِمِينَ."[3]

---

[1] – نور الدين السد، **الأسلوبية وتحليل الخطاب**، دار هومة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر،(د.ط)،(د.ت)، ص:**171**.

[2] – عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ط)، **1978م**، **ص:38**

[3] – الإبراهيمي، الآثار، ج**03**، ص:**41**.

فقد شُحنت هذه المقطوعة الفنية بألفاظ تسيل كلها رقة و عذوبة، و تدلّ على الإنكسار و المسكنة والتذلل، تناسبت و مقام الدعاء و الابتهال و التضرع .

كما يستعمل الإمام ألفاظاً قلقة قوية في مقام التهديد و الوعيد يقول:

"ما ظن الاستعمار بجمعية العلماء؟ أيظن أنها تمل و تكل فتضعف فتستكين؟ لا و الله.....إنّ جمعية العلماء لفي موقفها الثابت...و لقد جاهرنا هذه الحكومة مراراً بأنّ القضية دينية محضة...و سنقد كتائب السياسة في أضيق موالجها... و سوف تجدنا ...حيث تكره لا حيث تحب ... و سوف يريه أنّ عاقبة المعتدي على الإسلام وخيمة."[1]

و كأنّ الإبراهمي يسير على ضوء أحدث نظريات الأسلوبية والأدبية الذاهبة إلى أنّ عملية الإبداع الأدبي أساسها إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع أو التأليف؛ بمعنى أنّ العملية الإبداعية تتلخص في هذا القانون العلمي اللغوي الذي يقتضي أن يعتمد الذهن المنتج على اختيار الألفاظ من بين عدة احتمالات ثم يضعها على محور التأليف في شكل سلسلة كلامية دالة.

و قد أشار جاكوبسون إلى أنّ من شروط أدبية الأدب إسقاط محور الاختيار على محور التأليف؛فالأديب بإمكانه أن يختار أقرب المحتملات اللغوية الكثيرة التي تنتمي إلى نفس الحقل الدلالي التي تناسب مستوى التركيب بشكل تنسجم فيه الألفاظ وتتجاور وتتسق لتؤدي دورها في الإقناع والتأثير. و نمثل على هذا بـ:

"طالما قرأت في وجهك الشاحب آيات الحزن، و تلمحت في قسماتك دلائل الهم و الأسى، و كم حركتك بمعاريض من القول علني أستبين شيئاً من حقيقة الهم الدفين الذي تنطوي عليه أحناؤك. و هذا الأسى المبرح الذي أعلم أنك تقاسيه. فكنت كمن يستجلي المعنى الدقيق من اللفظ المعقد. و إنّ بين التعقيد ونفوس الشعراء((الأتقياء)) نسباً و ثيقاً. و يا للنفوس الشاعرة التقية و ما تلاقيه من عناء ممض..."[2]

و سوف نستبدل الألفاظ المسطرة بما يرادفها و يقع دونها بلاغياً:

"طالما رأيت في وجهك الشاحب علامات الحزن، و عرفت في ملامحه علامات الهم و الحزن، و كم دفعتك بتلميح من القول لعلي أعرف شيئاً من حقيقة الهم المخبوء الذي تحتوي عليه أحناؤك. و هذا الحزن المؤلم الذي أعلم أنك تعانيه. فكنت كمن يبحث عن المعنى الدقيق من اللفظ المعقد. و إنّ بين التعقيد ونفوس الشعراء((الأتقياء)) نسباً و ثيقاً. و يا للنفوس الحساسة التقية و ما تلاقيه من عناء ممض..."

[1] - المصدر نفسه، ج**04**، ص:**60**.

[2] - المصدر نفسه، ج**01**، ص:**228/227**.

فبعد أن أبدلنا هذه الكلمات بمرادفاتها نقص مفعول السحر الجمالي و تحول الكلام إلى خطاب عادي يخلو من الأدبية.و إنما نبع عنصر التأثير من براعة الإمام في اختيار أقرب الألفاظ إلى الجمال البلاغي بين عدة احتمالات.

4 .التقديم والتأخير:

مما لاشك فيه أنّ التقديم والتأخير مما يمنح الأدب أدبيته، و هو"باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التّصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، و لاتزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك،أنْ قدّم فيه شي ء، وحوّل اللّفظ من مكان إلى مكان."[1]

و نمثل على بلاغة التركيب عند الإمام بقوله:" تحيات زكيات تنتنزل من الملإ الأعلى ..."[2]، فقد قدم الإمام المفعول به على الفاعل في إشارة منه إلى الإختصاص و إلى تقديم المهم على الأهم.و الأمثلة كثيرة في ذلك .

و قل نفس الكلام إذا شئت في قوله" لكن ما قولكم- يرحمكم الله- إذا اعترض أبناءكم وهم في طريقهم إلى العلم لصوص يحاولون أن يقطعوا عنهم طريقه،أتسكتون وتقعدون عن نجدتهم؟..."[3]. فهاهنا قدم المفعول به(أبنائكم) على الفاعل (لصوص) لنفس الغرض السابق.

و من نماذج التقديم للأغراض البلاغية؛ تقديم الخبر على المبتدأ لغرض التخصيص قوله:

"لله دماء بريئة أُريقت فيك، ولله أعراض طاهرة انتُهكت فيك، ولله أموال محترمة استُبيحت فيك، ولله يتامى فقدوا العائل الكافي فيك، ولله أيامى فقدن بعولتهن فيك، ثم كان من لئيم المكر بهنّ أن مُنعن من الإرث والتزوّج، ولله صبابة أموال أبقتها يد العائثين، وحُبست فلم تُقسم على الوارثين"[4].

فقد قدم الإمام الخبر(لله) على المبتدأ(دماء، أعراض، أموال، يتامى، أيامى، صبابة).

---

1 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:83.

2 – الإبراهيمي،الآثار، ج02، ص:54.

3 – المصدر السابق، ج3، ص:316.

4 – المصدر نفسه، ص:335.

5. الاقتباس

ولما كان الاقتباس من وسائل التأثير فقد جعل محمد البشير الإبراهيمي كتاباته لوحة فنية تستأنس بالقرآن والحديث الشريف و الموروث الثقافي العام، لأنّ في الاقتباس روعة في البيان، و سحر في البلاغة، و يعتبر الاقتباس من الأدوات الفنية الجمالية التي لها دور في بناء التعبير. و على قدر حسن التصرف في توظيف هذه الروافد البلاغية و معرفة مواقعها، وحسن سبكها مع السياق العام للكلام تتحقق للنص أدبيته.و قد تعرضت لطرق الاقتباس عند الإمام في مبحث مصادر الأدبية عنده.

يقتبس الإمام من القرآن الكريم ما يُعَضدّ به مبدأ خطبته العام، ومن ذلك انه استشهد في خطبته الدينية الثانية بقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}. و قوله:{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} و قوله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}.

و يقتبس الإبراهيمي نصوصاً من الأحاديث النبوية الشريفة، وهذا أمر منسجم مع غرضه ومتناغم مع سياق النصوص العام، فالأحاديث النبوية هي المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله، و قد كان القدماء يعدون الاقتباس من القرآن و السنة المطهرة من دلالات البراعة الكتابية.

يفتتح الإمام اقتباساته من الأحاديث النبوية بقوله صلى الله عليه وسلم: (إنّ الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك) في نص أول خطبة جمعة بمسجد"كتشاوة".

و يضمن الإبراهيمي كذلك كتاباته عبارات وإشارات من الموروث الثقافي العام، وهو أمر مألوف في سياق النصح و الإرشاد، إذ يلجا عادة إلى الإفادة من تجارب السابقين والاتعاظ بهم الأمر الذي يُغني المضمون العام.

و من نماذج ذلك الإشارة التاريخية التي وردت في خطابه أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة بتاريخ 18 فيفري 1952م.وهي ذكره لغربة نخلة عبد الرحمان الداخل.

ويدلّ هذا التوظيف المتنوع للشواهد إلى موسوعية الإمام المعرفية التي تعب في عدة اختصاصات، وإلى معرفته بالظروف النفسية والاجتماعية و التاريخية، ويعود أيضاً إلى مدى قدرته على تكييف موضوعات الخطابة، وتطويع لغتها إلى ما يتطلبه السياق التخاطبي .

و من أمثلة حضور الشاهد الحديثي في أعمال الإمام ما جاء في رسالة الضب، يقول الإمام "ورأيته – أي الضب – عند دافة*[1] من أعراب الحجاز دفت على المدينة في عام ممحل* فما أثارت رؤيته في نفسي إلا ذكرى أنه عرض على مائدة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فرفع يده فقيل له: أحرام هو يا رسول الله؟ فقال: «لا أحرم ما أحلّ الله، ولكنه ليس بأرض قومي– وإنّ نفسي لتعافه.»[1]

ويضفي الشاهد مرجعية دلالية قوية في العمل الأدبي و يرتقي بأدبيته. و ويعمل على تدعيم المواقف أو تأكيد القناعات. وكذلك يقوي الأسلوب والمعنى في ذات الآن.

و على الرغم من أنّ فن الترسل فن نثري ، إلاّ أنّ الإمام طعم رسائله الشعر كقول ذي الرُّمَّة في وصف قبيلة تعرف بامرئ القيس:

فَأَمْثَلُ أَخْلاَقِ امْرِئ الْقَيْسِ أَنَّهَا ... صِلاَبٌ عَلَى طُولِ الْهَوَانِ جُلُودُهَا

فهذا الشاهد موجود في رسالته إلى الأستاذ إبراهيم كنون، كما كان يستعمل بعض الإشارات الشعرية كمثل "قفا نبك"في رسالته العلمية. فهذه الاختيارات الشعرية، آية تنوع ثقافة الإمام الأدبية، ورهافة حسه ودقة ذوقه.

6 .الاقتصاد اللغوي(الإيجاز):

يعدّ الإيجاز عنصراً جوهرياً في قيام الأدبية و"هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه."[2]

و قد كان للإمام القدح المعلّى في الإيجاز، فكان يأتي بالعبارة القصيرة التي تحمل المعنى الكبير، و التي لو ذهبت في الإبانة عنها لطال الكلام و تشعب.مثل:

---

*– **الدافَّةُ** : الجيش يَدِفُّ نحو العَدُوِّ.

و الدافَّةُ الجماعة من النّاس تُقْبِل من بلدٍ إلى بلدٍ . والجمع : دَوافٌّ.

*– **مُمْحِل :** ماحِل ، مُجْدِب.

[1]– الإبراهيمي، الآثار، ج**02**، ص:**43**.

3 **12**– ضيا الدين ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: احمد الحوفي وبدوي طبانة،دار النهضة، القاهرة،(د ط)(د ت)، ج02، ص:270.

" يا حضرة الاستعمار، إننا إذا حاكمناك إلى الحق غلبناك، و إذا حاكمتنا إلى القوة غلبتنا، و لكننا ندين بأنّ العاقبة للحق، لا للقوة."[1]

و نجد الحذف كذلك في قول الإمام:" وكذلك في دعوته العرب إلى الاتّحاد من أجل تحرير فلسطين، قائلا" :إنّ الصّهيونيّة وأنصارها مصمّمون، فقا بلوا التّصميم بتصميم أقوى منه"

جاء في هذة الجملة إيجاز حذف في قول الكاتب مصمّمون ؛فمؤدى الكلام أنّ الصهيونية وأنصارها مصمون على استلاب فلسطين.

ورغم أنّ عصر البشير الإبراهيمي لم يكن عصر رفاهية لغوية، بل كان عصر انكماش علمي، إلاّ أنّ ثقافة الإمام الواسعة وحفظه القرآن واستيعابه لعيون الشعر العربي، وخطب البلغاء وأمثال العرب السائرة وأسجاع الكهان، مكنته من نسج مقامات تُحيل على نماذج فحول البلاغة القديمة، عالج فيها قضايا عصره معالجة ذكية تحمل طابع الظرف والأناقة والبراعة اللغوية. و قد أعطت المقامات رؤية لغوية جديدة لدارس حيث كانت أكثر إظهارا – حسب ظني– للمقدرة العجيبة للرجل في استحضار النصوص القديمة، و استدعاء الألفاظ الغريبة من مظانها و توظيفها التوظيف الذي يجعلها تنسجم وفحوى السياق العام، و كانت بحق عنواناً لأدبيته. و لعلّ السبب في ذلك هو أنّ المقامة فن أدبي يتوسل بالبلاغة، و يجعلها وكده الأول. و قد جاءت مقامات الإبراهيمي كاشفة عن مقدرته اللغوية أو البلاغية، وهذا ما حقق الاستجابة القرائية رغم وعورة الألفاظ وإبهام المعاني. و قد أثرت مقامات الإمام في المتلقي وشوقته وعملت على إدهاشه و سيطرت على وجدانه من خلال انتقاء الألفاظ، و الجمل الرشيقة، المشفوعة بالمكونات البلاغية كالمحسنات اللفظية.

و سبب تسليط الضوء على مقامات سجع الكهان هو ما تمتاز به من تكلف وصناعة و تأليف بارع.

تصف مقامة ((سجع الكهان)) مشاهد الحياة إبان الحقبة الاستعمارية و مشكلاتها، وجه الكاتب فيها نقداً لاذعاً، للحكومات و الشعوب المسلمة بأسلوب فيه الحركة التمثيلية القصيرة، سرد فيها الإمام كلامه بطريقة جذّابة أخّاذة، لا يملك القارئ إلاّ أن يتجاوب معها، مثل التمهيد الذي وضعه الإمام بين يدي مقاماته، يقول:"هذه فصول، إن لم تكنْ فيها روح الكاهن ففيها من الكاهن سجْعُه، وإن لا يَجُلْ في جوانبها صَدَى الكهانة ففيها من ذلك الصدى رَجْعه؛ فيها الزمزمة المفصحة، والتعمية المبصرة، وفيها التقريع والتبكيت، وفيها السخرية والتنكيت، وفيها الإشارة اللّامحة، وفيها اللفظة الجامحة، وفيها العسل للأبرار، وما

[1] – الإبراهيمي، الآثار، ج03، ص: 63.

أقلَّهم، وفيها اللسع للفجار، وما أكثرهم، فلعلّها تهزُّ من أبناء العروبة جامدًا، أو تؤزّ منهم خامدًا، فنجني شيئًا من ثمرة النية، ونغيِّر أواخر هذه الأسماء المبنيّة. "[1]

7. خاتمة:

وفي الختام لعلّ شعرية لغة الإبراهيمي تكمن فيما يلي:

1. غرابة الألفاظ و حسن انتقائها مثل: **السابق،المصلي، الآبق، المولىّ**..
2. براعة الوصف و أكثر ما يتجلى في وصفه لتكالب الدول الغربية على فلسطين، يقول:"...أنَسيتم يوم تنادوا مُصْبِحين، وتعادوا مسلّحين، وتداعوا مصطلحين، و تعاووا من كل حدب، وتهاووا من كل صبب، ذؤبان تقدمها رهبان، وغربان تظلّلها صلبان، بنفوس من الحقد ثائرة، وقلوب بالبغضاء فائرة..."[2]
3. استعمال البديع و الصور البيانية:
   - الطباق:**الضعف و القوة**.....
   - المقابلة: **وفيها العسل للأبرار، وما أقلَّهم، وفيها اللسع للفجار، وما أكثرهم**....

4.التضمين و الاقتباس و الإشارات التاريخية مثل قوله:" أيّتها البُحيرة، مالك في حيرة؟ لقد شهدت لبدر بن عمّار* بالفتوة، فهل تشهدين لأبي الطيب بالنبوّة؟ **...** وحدّثي الولي يا (ولية) ، أيّهما كان عليك بلية؛ ذاك الذي وردك زائرًا، أم هذا الذي وردك خائرًا؟ إنهما لا يستويان؛ ذاك أسد

[1]– المصدر السابق، ج03، ص:518.

[2]– المصدر السابق، ص:533.

غاب، رزقه في الناب، وهذا حلف وِجار، رزقه على الجار؛ ذاك يعيش على فرائسه، وهذا يعيش على فضلات سائسه، ذاك رمزُ إقدام، وهذا موطئ أقدام؛ ذاك ورد الفرات زئيرُه، وهذا جاوز الفرات تزويره؛ ذاك مشغول البال بتربية الأشبال، وهذا مشغول ... بعُرْس الغول."[1]

[1]– المصدر نفسه، ص 520.

*– **بدر بن عمار** باني قلعة طرابلس وقد زعم البعض أن من بناها الصليبيون، كان أميراً كريماً وذو عز ونسب وهو من الطائفة العلوية الإسلامية وقتل الأسد له جهاد طويل ضد الصليبيين، مدحه المتنبي بغرر من قصائده.

8.قائمة المراجع:

- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي،ط 1997.
- أبو عثمان الجاحظ ، البيان و التبين، أبو هلال العسكري، **الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي وأبي الفضل إبراهيم،المكتبة العنصرية، بيروت، لبنان(د ط)،1419هـ؟.
- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر،(د.ط)،(د.ت).
- – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ط)، *1978* م.
- ضياء الدين الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: احمد الحوفي وبدوي طبانة،دار النهضة، القاهرة،(د ط)(د ت).